محمد مهدي البصير ودوره في ثورة العشرين

كريم مطر حمزة
كلية التربية-جامعة بابل

المقدمة

محمد مهدي البصير الكلابي الحلي ، شاعر وأديب وشخصية وطنية ، له إسهامات كثيرة في رفد العلم بقلمه النير ، ولكن إسهامه الأكبر الذي خلد أسمه كعنوان كبير في تاريخ العراق المعاصر هو دوره الوطنية المتميزة في ثورة العشرين وغيرها من المواقف الوطنية الأخرى .

البصير هو خطيب ثورة العشرين ، وقد لقبه قسم من المؤرخين ب (ميرابو ثورة العشرين) ، هذا اللقب غير ملائم لان ميرابو نُبش قبره بعد موته وأتهم بالخيانة العظمى ، بينما البصير بقي علما عاليا بحسنيه والإخلاص للعراق ارضا وشعبا ومقدسات ، ويتضح ذلك جليا خلال أثره بثورة العشرين .

يناقش البحث ثلاث نقاط

١) نشأة البصير وحياته الأولى .
٢) نشاطه السياسي قبل ثورة العشرين .
٣) نشاطه في ثورة العشرين .

لأحكام

أن ثورة العشرين لم تلق البحث والدرس بما تستحق ، وهذا ما أكده عدد من مؤرخينا[١] في مؤلفاتهم التاريخية . وربما جاء هذا البحث التاريخي جزء من سلسلة جديدة أخرى عن ثورة العشرين .

نشأته وحياته الأولى

ولد محمد مهدي البصير في محلة الطاق بمدينة الحلة سنة ١٣١٣هـ الموافق ١٨٩٥ م[٢] ويرى بعض انه ولد في عام ١٨٩٦ [٣] . نشأ في كنف أسرة معروفة بالدين والأدب هي اسرة (الشبيب) ، وهو حفيد الشيخ شهاب الدين الكلابي[٤] الذي كان واعظا دينيا وخطيبا حسينيا ورث عنه أبنه عبد الحسين جد البصير قابليته في الخطابة ، وقد ورثها بدوره أبنه محمدا والد البصير[٥] .

كان والده الشيخ محمد يرعاه ويجتهد في تربيته ليقتفي أثر أسرته في الخطابة فأرسله الى الكتّاب لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القران والحديث ودراسة العلوم الشرعية والعربية . فلاقت رغبة الشيخ هوى في نفس ولده اذ سارع الى التعليم في الكتّاب[٦] . ويتحدث البصير عن حياته الاولى في مذكراته ((: وما كنت أبلغ الخامسة حتى ابديت رغبة شديدة في الذهاب الى الكتّاب ، لا لاتعلم القراءة فحسب ، ولكن لاتفوق على من يكبرني قليلا . وهو يتعلم القراءة في كتّاب تديره امرأة يقرب سنها من الستين ، كنت اليها بصفة خاصة عجيبة))[٧] فبرزت فيه اصول التفوق مبكرة .

فقد محمد مهدي بصره في الخامسة من عمره ، فلم يكد يرى النور حتى انطفأت عيناه بسبب مرض الجدري ، يحدثنا هو عن ذلك فيقول :

((..... وكنت أستيقظ مبكرا كعادتي ، وكنت قد لقحت منذ بعض الوقت ضد الجدري وخرجت الى الشارع فأبصرت كلب أسود ضخما للغاية فخفت خوفا شديدا ورجعت الى فراشي فنمت نوما عميقا لم استيقظ منه الا وقد أنتشر الجدري في جسمي ، وشفيت من الجدري في الوقت المناسب ولكني كنت قد فقدت بصري))[٨] .

ومنذ ذلك الوقت حرم من أعظم نعمة يهبها الله للإنسان ، وإذا كان البصير قد فقد هذه النعمة فان الله سبحانه وتعالى قد عوضه نور البصيرة التي هي أجل شأنا وأسمى قدرا فقد عوضه بقريحة متفتحة وذكاء وقاد وحافظة نادرة يفتقدها كثير من المبصرين جعلته ذا شأن في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية. ولقب محمد مهدي بـ (البصير) من باب تسمية الشيء بضده ، وقد أنفرد بهذا اللقب من بين أفراد أسرته[٩].

قيض له أن يتتلمذ في حياته على أيدي نخبة من أكفأ أساتذة اللغة والأدب والعلوم الدينية في مدينة الحلة منهم الشيخ حسن البصري والشيخ عبد الرزاق بن الشيخ سعيد والشيخ الشاعر أمين الحمزاوي ، وعرف عن الأخير ولعه بإلقائه قصائد المتنبي على سامعيه بنغمة خاصة ، أثرت في البصير ، وملكت لبه ، وجعلته يلازمه للاستزادة من إنشاده،[١٠] والشيخ أمين عوض الذي به عرف البصير مهيارا وحفظ كثيرا من نسيبه[١١] .

ممن أخذ عنه البصير الشاعر عبد المطلب الحلي[١٢] الذي شجعه على حفظ الشعر ولقنه فنون صياغته[١٣]، وكان أشدهم أثرا فيه العلامة السيد محمد القزويني الذي لازمه قرابة ثلاث سنوات درس خلالها عليه علوم الحديث والفقه واقتبس الكثير من علمه وأدبه وسمو خلقه.[١٤]

أتصل البصير بعدد كبير من الشعراء والأدباء ، وقرأ دواوين المتنبي ومهيار الديلمي والشريف الرضي وأبي العلاء المعري، حتى نظم الشعر ولما يتجاوز سنه الرابعة عشر ، وكان أهم الشعراء الذين استفاد منهم هو حيدر الحلي المتوفي عام ١٨٣١ م[١٥]

أخذ البصير يتتبع الشعر والأخبار حتى حفظ منها الشيء الكثير ، ولم يكد يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى رأى والده أن الوقت حان لان يلبس العمامة وان يمضي في دراسة علوم العربية والدين ، فكان له ذلك . ولما انس منه والده القدرة على النهوض بمهمة الخطابة وارتقاء المنبر، سمح له بممارسة هذه المهمة ، فكان في أول الأمر يقرأ المقتلة، وهي إلقاء ما تيسر من الشعر ، ويكمل والده القسم الثاني وهو الوعظ والإرشاد وما يتصل بمأساة الإمام الحسين عليه السلام ، ولكن البصير أحيانا ينتهز فرصة تأخر والده فيكمل القسم الثاني. ومنذ ذلك الوقت تسنم البصير المنبر وصار خطيبا يتنقل بين مجالس العزاء الحسينية[١٧].

لم يكن بين خطباء تلك الفترة، من يمتلك مثل هذه المقدرة التي شهد بها أبوه . إضافة إلى شهادة الناس بها وهي التي جعلت مجالسه تستغرق ما يزيد على الساعة والنصف والحاضرون يستزيدونه [١٨] .

التمع نجم البصير في المجتمع الحلي ، وأصبح أحد ابرز رجالاته وخطبائه المفوهين، وشعرائه المفلقين . ولكنه ما لبث أن برم بمهنته (الخطابة الدينية) التي وجدها لا تلبي طموحه ، فعقد العزم على تجاوزها إلى أفاق أرحب[١٩] .

٢-نشاطه السياسي قبل ثورة العشرين

أهتم محمد مهدي البصير بالسياسة في وقت مبكر، وعكس شعره التطور المتسارع في الوعي القومي الذي شهده العراق بعد إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ ، فبحكم نزعته الدينية رأيناه في بداية حياته الشعرية والسياسية يقف إلى جانب الدولة العثمانية في مواقفها وحروبها ضد دول الغرب ، ويبدو ذلك واضحا في قصيدته (إلى أبطال العثمانيين) التي يمتدح فيها أنور باشا وزير الحربية العثماني بقوله :

عقد الإله لواك فهو مظفـــــر بالنصر ما بين المماليك ينشر
وأطال عنق الدين سيفك إذ غدا في حده باع العدو يقصـــــر

يا صائنا تاج الخلافة والـــذي فيه أقيم سريرهـــا والمنبر[٣٠]

كان الاتجاه العام لشعراء العراق آنذاك هو تأييد الدولة العثمانية في حروبها ضد بريطانيا والحلفاء أثناء الحرب العالمية الاولى، يباركون لها انتصاراتها في معاركها كمعركة الدردنيل عام ١٩١٥، وأنبرى الشعراء في تلك الفترة ينشرون اشعارهم في جريدة (صدى الاسلام) ويعلنون ابتهاجهم وتأييدهم للدولة وقواد الجيش . ونرى هذا الاتجاه واضحا عند البصير خلال السنوات الاولى من حياته السياسية .

لقد سحب البصير تأييده للدولة العثمانية وانقلب ناقما وساخطا من أنور باشا الذي مدحه بالامس بسبب اصطدامه بهول المأساة التي حلت بمدينته خلال ما عرف ب (واقعة عاكف الثانية)[٣١]، فقد غدر القائد العثماني بأهل الحلة واستباح مدينتهم في ١٦ تشرين الثاني عام ١٩١٦، وفعل هو وجنوده الافاعيل في المدينة هدما وحرقا ونهبا وقتلا، وخصوصا محلات الطاق والجامعين وجبران والوردية ، ولم يكتف بذلك بل أعدم مائة وسبعة وعشرين رجلا من خيرة شباب أهل الحلة، بعد أن أخذهم رهائن لديه. وكان من ضمنهم عم البصير الشهيد (صادق الشيخ عبد الحسين الشهيب) الذي شنق وعلقت جثته مقابل الجسر. وقد زاد عدد شهداء مدينة الحلة على ألف وخمسمائة شخص في هذه الواقعة [٣٢]. يضاف الى ذلك سياسة التتريك التي انتهجها الاتحاديون مع الشعوب غير التركية التابعة لهم، وضرب العناصر التي ترفض هذه السياسة غير مراعين حقوق هذه الشعوب التي صبرت على جورهم والتي لم يكن صبرها الا حفاظا على الرابطة الإسلامية . ومن قصيدة له يؤكد ذلك:

صبرنا على جور اعدائنـــا لحفظ الديانة لا عن رهـــب
وكنهم فوضوا مجدهـــــا لتبني لهم عاليات الرتـــب
وعادوا لعنصرنا يضربون رقاب بني الشعب كي ينشعب [٣٣]

اتجه البصير في تلك الحقبة أتجاهها مؤيدا للثورة العربية في الحجاز عام ١٩١٦م ، لا سيما وقد نشر الوعي والفكرة القومية، في تلك الحقبة بين مثقفي العراق . فأخذ ينشر شعره الذي يمثل هذا الاتجاه في مجلة دار السلام . ومن قصيدة امتدح فيها الشريف حسين ونجله فيصل قائلا :

فصاح الجمع وقد صفقوا ليحيى الحسين ليحيى العرب
ليحيى الأمير لنا فيصـــل شريف النجار كريم النســـب [٣٤]

حين أعلن المنشور البريطاني الفرنسي الصادر في ٨ تشرين الثاني عام ١٩١٨ والذي ينص في ظاهره على تأسيس حكومات وادارات وطنية في كل من العراق وسوريا. أخذ البصير يدعو الى استقلال العراق بحماسة ولف حوله فريق من الشباب المتطلعين الى الحرية[٣٥] .

وعندما قام نفر من وجهاء الحلة مثل غيرهم في بغداد والبصرة والموصل والديوانية والكوت بتقديم طلب الى الحكومة البريطانية وهو أن يصبح المندوب السامي البريطاني (برسي كوكس) ملكا على العراق. ثارت ثائرة مجموعة البصير المنادية بالاستقلال فأمطرت الحكومة بمذكرات الأحتجاج وقد أدان البصير موقف هؤلاء بقصيدة عنوانها((أيها الصديق)) جاء فيها :

أبـــوا أن يصبحوا الا عبيدا وكم حاولت الا يسترقوا
هـــــم المستعبدون كما أرادوا فليس لهم كما أملت عتق
لقد سحقوا ولكن لم يضـــوعوا كما للترب لا للمسك سحق [٣٦]

أنشأ البريطانيون عدة صحف منها جريدة العرب ومجلة دار السلام وغيرها من الصحف والمجلات، وكان البصير ينشر فيها شعره بأسم مستعار بأسم (أبن بابل) و (أبن السلام) و (البابلي)، وظل ينشر فيها شعره ونثره الى أن ظهر أسمه الصريح في مجلة دار السلام[٢٧] .

بعد أن تبين للبصير زيف شعارات المحتلين البريطانيين، وقف على حقيقة أمرهم كمستعمرين وفاتحين لا محررين كما أدعوا، فوقف موقفا معاديا من الاحتلال، أتخذ شكل المعارضة السياسية، وأخذ يفضح سياسة الانكليز القائمة على الخداع والتضليل، تزعم الحركة الوطنية المناوئة لهم وسخر شعره وخطبه في الهاب حماسة الجماهير وتحريضهم على الثورة وبخاصة بعد أن نكث الانكليز وعودهم، بدى له واضحا في مؤتمر السلام الذي عقدته دول الحلفاء في فرساي عام ١٩١٩ والذي كرس للهيمنة الاستعمارية على المنطقة ، حين هاجم قرارات المؤتمر الجائرة بحق الشعوب ، وتنبأ بالعواقب الوخيمة التي سوف تنجم عنها . ويستنتج من قصده أن مؤتمر السلام لن يحقق السلام، بل العكس سوف يشعل نيران الحروب والفتن في أرجاء العالم ، وقد صحت نبؤة البصير :

أمؤتمر السلام عقدت صلحا ... أغظت مع الهلال به الصليبا
فما انطفأت للأحقاد نارا ... بلى قد زدت جمرتها لهيبا
وما وطدت للدنيا سلاما ... ولكن سوف تملؤها حروبا
لقد أمضيت في فرساي عهدا ... خلقت لنا به عهدا رهيبا [٢٨]

وحين ايقن البصير ان الثورة الشعبية تستلزم نشر الوعي الوطني والقومي بين الجماهير ، قرر أن يجند نفسه كليا لهذه المهمة الخطيرة . قال في هذا الصدد مرتجلا :

أيقدمون وهم احمى الرجال حمى ... أم يحجمون وهذا اكبر العجب
فلا صغار إذا هم دونها ثبتوا ... و لا فخار اذا الووا على رهب
ولن يصان لليث الغاب مربضه ... من الذئاب لو أن الليث لم يثب [٢٩]

واذا كانت مواقفه السياسية الوطنية نابعة من فهم سياسي خاص ، إلا انه دخل دائرة العمل السياسي المنتظم منذ وقت مبكر ، إذ جاء في مذكراته القول :((تألفت في بغداد جمعية سرية سياسية أطلق عليها أسم (جمعية حرس الاستقلال) ومن أهداف هذه الجمعية أنها تسعى لاستقلال العراق وأسناد منصب الملك الى احد أنجال الشريف حسين ، وتدعو الى ضم العراق الى لواء الوحدة العربية ، وتنادي في توحيد كلمة العراقيين على أختلاف مللهم ونحلهم ، وقد طلب الي السيد محمد الصدر أن اؤسس للجمعية فرعا في لواء الحلة فوافقت وأسست الفرع . وأسندت الي رئاسة الفرع، وبقيت رئيسا للفرع حتى غادرت الحلة وسافرت الى بغداد))[٣٠]

لقد شغلت مسألة الاستقلال بال البصير، وأخذ يفكر فيها حتى ادرك أن الاستقلال لا ينال الا بالثورة على المحتل ، والثورة لا بد لها من التضحية والفداء وهذا لن يكون الا بتهيئة الاذهان وبث روح الوعي الوطني بين صفوف الشعب والتغلغل بين الجمهور والتأثير فيه[٣١] . كان طموحه أن يكون بين المرموقين والمعروفين بمكانتهم الاجتماعية ، وهنا قرر السفر الى بغداد منارة الاشعاع والثورة وملتقى رجال الفكر والادب. وكان والده غير راض عنه لقراره هذا، أنما أراد له البقاء في الحلة ليعتمد عليه في رزقه. لكنه فضل السفر الى بغداد ليحقق طموحه الفكري والسياسي ، فوصلها في ٩ مايس عام ١٩٢٠م[٣٢] .

٣-نشاطه في ثورة العشرين

كانت اقامته الاولى في بغداد عند محمد الصدر في الكاظمية، وقد توثقت العلاقة بينهما ، فطلب من الصدر ان تسند اليه مهمة القيام بحملة دعائية واسعة وكبيرة ضد حكومة الاحتلال البريطانية، على أن تكون الحملة ذات طابع ديني، أي تلقى الخطب السياسية والقصائد الحماسية أول الامر في مجالس التعزية الحسينية وحفلات المولد النبوي الشريف وهي الاجتماعات العامة الوحيدة المسموح بها في ذلك الوقت، فأذا كتب النجاح للحملة وسارت في طريقها المقدر لها خرجت من هذه الحدود الضيقة ، وظهرت على مسرح الحياة العامة بشكل حركة وطنية وقومية[٣٣]. وعن هذه الفكرة يقول مؤلف كتاب (أحداث ثورة العشرين كما يرويها شاهد عيان) أن هذه الفكرة قد أبتدعها صالح الحلي[٣٤] حينما أرتقى المنبر في الكاظمية يوم الاربعاء ١ أيار ١٩٢٠ وخطب خطبة شائقة حض المسلمين فيها على التمسك بيوم الجمعة[٣٥] .

رغم الاراء التي قيلت في موضوع بداية العمل السياسي المنظم في بغداد كانت عديدة فأن الراجح كلا القولين صحيح. وهذا ما ذهب اليه الدكتور علي الوردي، ((... معنى هذا أن السيد صالح الحلي وضع الفكرة دون قصد منه وجاء الشيخ مهدي البصير على أثره فأهتم بها وربطها بالحركة الوطنية))[٣٦].

مما لا جدال فيه أن البصير عقد العزم على المجيء الى بغداد قبل خطبة السيد صالح . وكان سبب مجيئه الرئيس والمباشر هو هذه الفكرة التي قد أختمرت في ذهنه واقتنع بها القناعة التامة بعد أن درسها وقلبها على وجوهها كافة ، هذه الفكرة استلهمها من الاجتماعات التي كانت تعقد في المناسبات الدينية الكثيرة والمتنوعة والتي كانت تحضرها شرائح مختلفة من المجتمع الحلي، وكان البصير قد لمس أثرها الفاعل في نفوس الناس ووجدانهم وعقولهم سواء كان هو المحاضر والخطيب أم والده[٣٧] .

كانت هذه المحاضرات والخطب تمنحهم دفقا روحيا وتغذيهم بالمبادئ الإسلامية السامية التي توكد شرف الكلمة وروح التضحية والجهاد من أجل مبادئ الحق، ولولا هذه الفكرة التي عاش وهو يحلم بتطبيقها على نطاق أوسع من بيئته الحلية لما ذهب الى بغداد .

وافقت اللجنة التنفيذية لحزب حرس الاستقلال، الذي يترأسه محمد الصدر ، على مقترح البصير ، بقرار أن تتحول كل الاماكن المحتملة للاجتماعات الدينية، وخصوصا جوامع بغداد الكبيرة الى مراكز لاستنهاض الهمم ضد الاحتلال البريطاني[٣٨]. وقد نجحت خطة البصير فصار الشعراء والخطباء يتسابقون لالقاء الكلمات والقصائد في هذه الاجتماعات، وكان البصير في مقدمتهم فلم يكونوا بادئ ذي بدء يقادرين على الجهر بأرائهم الثورية هذه خوفا من بطش السلطات الاستعمارية، فراحوا يتخذون من المناسبات الدينية والعلمية ستارا لبث الافكار التحررية، التي كانت تنادي بانكسار حق الوصاية البريطانية او الانتداب البريطاني[٣٩].

كانت قصيدة (باعث الغضب) أول قصيدة للبصير تندد بالانكليز، وقد القيت في ١٩ أيار ١٩٢٠ في حفلة أفتتاح المدرسة الحسينية . ومن هذه القصيدة :

يا مطلع الازهرين : العلم والأدب ... ردي أليـنا رقي الشرق والعرب
ما أنت إلا سماء أطلعت شهبا ... وهل لديك سوى الافكار من شهب

ويقول فيها مشيرا الى الإنكليز :

لاتعبن لهم أدوار منتـخبه ... حتى يفرق بين الجد واللعب[٤٠]

ويؤكد البصير أن المظاهرات والاجتماعات توالت وصار الخطباء والشعراء يتسابقون في القاء خطبهم وقصائدهم، وفي ٢٥ أيار ١٩٢٠، وعلى أثر اعتقال الشاعر عيسى عبد القادر الريزلي من قبل السلطات البريطانية، فالقى خطبة حماسية في جامع الحيدرخانة هاجم الانكليز هجوما عنيفا، وبين للجمهور أسباب اعتقال عيسى عبد القادر. وعند انتهاء الخطبة خرجت الجموع في مظاهرة كبيرة وحاشدة ، فلما شاهدت السلطات المحتلة ضخامة المظاهرة لم تستطع ان تمتلك زمام نفسها فأطلقت النار على المتظاهرين، فاصابت النار رجلا أخرس بائع صحف ؟أردته قتيلا . فكان ذلك سببا كي تعم المظاهرات. وقد شيع الأخرس بأضخم موكب شهدته بغداد الى مثواه الاخير ، وقد لقب بـ(شهيد الوطن)[٤١] .

وفي عصر اليوم التالي، ٢٦ آذار ١٩٢٠/٨ رمضان ١٣٣٨هـ، أستدعت السلطات البريطانية عددا من الزعماء الوطنيين، من بينهم البصير، وحملتهم مسؤولية ما حدث في بغداد من أعمال عنف، وقد تدخلت بعض الشخصيات العراقية لدى سلطة الاحتلال لاطلاق سراحهم ولولاها لانزلت بهم عقوبات صارمة[٤٢] .

في يوم ٣٠ أيار ١٩٢٠ أقامت المدرسة الجعفرية حفلة لتوزيع الجوائز على المتفوقين من طلبتها، والقى البصير أمام المحتفلين قصيدة عنوانها (يا علم)، وقد أحدثت هذه القصيدة رنة في الاوساط السياسية، وأعتبرتها في وقتها جوابا على تصريحات وتهديدات الحاكم العسكري البريطاني . ومطلع القصيدة يقول :

يا علم عش وعش فعصرك راقي وأعد شموس الشرق للإشراق

وجاء في القصيدة أيضا :

ولسوف أكسر غل عنقي جاهدا أن لا أسلمها للأطـــــــواق [٤٣]

ان من أهم الأخطاء التي أثارت سخط الشعب على سلطة الاحتلال ووقعت في نفوس المفكرين من أبنائه أسوا وقع هو خنق الحرية الفكرية ومنع إصدار أي جريدة سياسية غير الجرائد الرسمية المؤيدة لسياسة الاحتلال، وقد أدت مصادرة حرية الصحف في البلاد إلى رغبة لا حد لها في قراءة الصحف السورية والمصرية[٤٤]. لذلك طالب محمد مهدي البصير في اجتماع عقد بجامع الحيدرخانة بتاريخ ١٧ حزيران ١٩٢٠ الجمهور بتقديم احتجاج شديد على تأخر سلطات الاحتلال في الاستجابة لمطالب الوطنيين العراقيين حول اطلاق الحرية للصحافة[٤٥]. ويشير تقريرا أخر الى أن المجتمعين بجامع الوزير يوم ١٥ تموز طالبوا بصحافة حرة[٤٦].

كانت فكرة الاستقلال قد أستحوذت على أفكار المثقفين الوطنيين العراقيين ومشاعرهم بحيث لم يكن من غير المتوقع أو من غير الطبيعي أن تصدر في أيام الثورة وفي أن واحد جريدتان تحملان أسم ((الاستقلال)) نفسه. وغالبا ما كان البصير يكرر شعار ((لا حياة بلا أستقلال)) في خطبه عشية الثورة وفي أيامها[٤٧] .

في ٣ حزيران ١٩٢٠ ، وفي أجتماع وطني حاشد في جامع الحيدرخانة ببغداد ألقى محمد مهدي البصير قصيدته المشهورة ((لبيك يا وطن)) ومنها :

ان ضاق يا وطني علي فضـــــــاكا فلتتسع بي للإمام خطـــــــاكا

أجرى ثراك دمي فان انا خنـــــــته فليبذني ان ثويت ثـــــــراكا

بك همت بل الموت دونك في الوغى روحي فداك متى أكون فداكـــا

هب لي بربك موتة تختارهـــــــا يا موطني أو لست من ابناكـــــا

فليتحد جسدي بتربك بالـــــــــا وتقترن ذكراي في ذكراكـــــــا[٤٨]

كان يعبر في قصائده عن عمق حبه للوطن . فهو عنوان للوطن والوطنيةونرى ذلك بوضوح خلال قصيدته((أطلاق وتأييد))التي مطلعها :

وطني والحق يؤيده ... أصفيه الحب وأعضده
أهواه ولولا مبدعه ... لجبرت بأني أعبده
مهد التشريع ومنبته ... ومنار العلم وفرقده (٤٩)

في محاولة من الحكومة البريطانية لاغراء البصير وحمله على الكف عن مناضلة سلطة الاحتلال، عرضت عليه أن تسجل بأسمه أراضي شاسعة من جنوب بابل وما تحيط به من بساتين وأطيان ملكا صرفا، ولكن البصير رفض ذلك بإباء وهو الفقير المعدم(٥٠) .

في ٣٠ حزيران ١٩٢٠ أنطلقت رصاصات الثوار ضد المحتلين في منطقة الفرات الاوسط ، يقول البصير في مذكراته عن الايام التي تلت الثلاثين من حزيران :((عندما أضطرمت نيران الثورة في كل مكان من انحاء العراق، وعمت المدن والقرى، وبعد أن استولى الثوار على النجف وكربلاء ومدن أخرى من الفرات الاوسط وعلى الخالص وبعقوبة، كنا نقيم الاجتماعات الشعبية ونلقي فيها القصائد الحماسية والخطب وننين للجمهور أنتصارات الثوار وأندحار جيش الاحتلال وخسائره في الارواح والمعدات ، فكان ذلك يبهج النفوس والمشاعر))(٥١) .

وكانت أشعار البصير تترجم للثورة ، أنتصاراتها ومعوقاتها ، ففي قصيدة ((إذا سخطنا علمنا كيف ننتقم)) التي القاها على مظاهرة شعبية كبيرة في بغداد ، يقول منها :

لم يخطب السيف حتى أخرس القلم ... فالكلم أجدى لنا نفعا أم الكلم
كم أخلفوا بأمانينا سياستهم ... حتى إذا استنتجت اقوالهم عصموا
فما تحرر رأيا أو تقرره ... حتى تغل يدان أم يكم فم(٥٢)

وحين عمت الثورة كثيرا من مدن العراق ، أنشد قصيدة ((وأبيك أن الحق غالب)) في حفلة ثورية كبرى اقيمت بجامع الحيدرخانة . يقول فيها :

بين الاسنة والقواضب ... شرف المبادئ والعواقب

ويصف انتصارات الثوار عندما حرروا مدنا عديدة ويحيي الابطال الذين استجابوا لنداء وطنهم باذلين مهجهم في سبيل تحريره :

دانت الفرات جحافلا ... وجرى ديالى بالمثالب
واحتلت المدن العديدة ... فبي في حكم المضارب
أهلا بخافقة البنود ... تظل زاحفة المواكب (٥٣)

كما أنه نظم في تلك الاونة نشيد الثورة يتغنى به في المحافل والمدارس ومنه :

أصغي مجدك يا أرض العراق ... فعليك الدم والدمع يراق

*** *** ***

ضمنت أسيافنا استقلالنا ... فأثبتوا للذود يا أبطالنا
حققت أعمالكم آمالنا ... فاتحادا واتحادا واتفاق (٥٤)

وبعد أن اضطرمت نيران الثورة في كل مكان من أنحاء العراق ، وقد أدى فيها دوره الكامل والجريء في إثارة الجمهور وزجه في ميدان المواجهة المسلحة مع الاحتلال البريطاني، وتحقق ما كان

يدور في خلده من الغرض الذي قدم إلى بغداد من أجله انتقلت الثورة إلى مرحلة المواجهة وخف دور الشعراء والخطباء ليقوم محله دور السلاح والمقاتلين، وليصغي إلى أخبار الانتصارات التي يحققها الثوار.

سجل البصير في شعره بطولة العراقيين ضد الاحتلال، وأودع في أبياته وألفاظه جمرات متقدة ونفخ فيهما من روحه ، فكانت نارا ملتهبة تلفح وجوه المستعمرين، لذلك لقب بحق (شاعر الثورة العراقية)[٥٥] وكما انه شاعر الثورة كان خطيبها أيضا ، وكان كذلك مؤرخها لأنه دون أحداث الثورة ووقائعها ومجرياتها في كتاب لا يزال يعد من المراجع الأساسية لهذه الثورة .[٥٦]

لم يقل نشاط البصير خلال مجريات الثورة ، كان يتابع نشاطات الثوار ويذيعها للجمهور مستبشرا، ويكتب أشعاره ومقالاته في الصحف والمجلات وخاصة صحيفة ((الاستقلال البغدادية)) ،فيبين من خلال كتاباته اراءه وأفكاره تجاه الثورة ، وسلطات الاحتلال البريطاني ، ومطالب العراقيين في الاستقلال[٥٧] .

عندما شارفت الثورة على نهايتها دون أن تحقق الأهداف المرجوة منها ، كان رأي البصير أن تقوم شخصيات وطنية بغدادية بدور الوساطة بين الثوار وسلطات الاحتلال البريطاني ، لكي تتوصل إلى حل يحفظ كرامة الثوار، ويحقق لهم جزء من أهدافهم. لكن هذا المقترح لم توافق عليه اللجنة التنفيذية لحزب حرس الاستقلال مما أبقى ذلك حسرة في نفسه[٥٨] .

وفي ١٢ اب ١٩٢٠ وجد البصير نفسه مضطرا أن يختفي عن انظار سلطات الاحتلال ، لان البريطانيين داهموا في فجر ذلك اليوم بيوت عدد من زملائه ، ففر منهم من فر، وقبض على فريق منهم فزجوا في السجون والمعتقلات وكانت السياسة البريطانية في العراق اثناء الثورة مبنية على العنف والبطش وملاحقة أي عراقي يطالب بحقوقه في الحرية والاستقلال ولكنه عاد الى الظهور في شهر تشرين الاول ١٩٢٠ بعد مجيء السير برسي كوكس مندوبا ساميا للعراق في السابع من تشرين الاول[٥٩]، وتغير الظروف السياسية حيث وافقت بريطانيا على تشكيل حكومة وطنية عراقية، وأن كان تحت أشرافها ، لكن هذه الخطوة تعد من نتائج الثورة التي أرغمت البريطانيين على تغيير أسلوبهم في حكم العراق من الحكم العسكري المباشر الى اسلوب أخر.

كان للبصير نشاط سياسي كبير بعد نهاية ثورة العشرين، لم يقل عن نشاطه في الثورة، تمثل هذا النشاط في كتاباته الوطنية بالصحف البغدادية وفي تشكيل الاحزاب الوطنية وانتمائه القيادي لها، ومقابلته سلطات الاحتلال ، خصوصا برسي كوكس، للمطالبة بحقوق العراقيين، ثم نتيجة لنشاطه السياسي الوطني البارز أعتقل من قبل الانكليز ، ثم نفي الى جزيرة هنجام، ونشاطات اخرى هي في حقيقة الامر خارج اطار بحثنا الذي يتوقف عند نهاية الثورة .

الخاتمة

كان البصير في الصف الاول من المثقفين العراقيين الذين وقفوا ضد الاحتلال البريطاني فسخر اشعاره وخطبه لهذا الغرض ، كما ساهم في قيادة المظاهرات الاحتجاجية ضد قوات الاحتلال البريطاني. ويستحق البصير أن ننظر اليه باعتزاز وإجلال، فرغم فقد بصره لكنه استطاع ان يعمل ما لم يستطع ان يفعله المبصرون .

أن للبصير دورا مميزا في ثورة العشرين، وهذا الدور مكملا لادوار رجال دين، وسياسين وشيوخ عشائر ، ومثقفين في الثورة. ورغم أن العديد من المؤرخين يعد تأريخ ٣٠ حزيران ١٩٢٠ هو بداية

ثورة، لكنني أرى أن بدايتها الحقيقية حين تأججت نار الغضب على المحتلين بتأثير من خطب وأشعار محمد مهدي البصير وسواه من الشعراء ورجال الفكر والسياسة قبل أن تنطلق البنادق في نهاية حزيران.

الهوامش

١) نذكر مثالا على ذلك دراسات المؤرخ المعروف كامل مصير الحمد حول ثورة العشرين وهي واحدة من دراسات عديدة اخرى .

٢) علي الخاقاني ، شعراء الحلة أو البابليات ، النجف الاشرف ،المطبعة الحيدرية،١٩٥٢ ، ج٥ ص٢

٣) غازي عبد الحميد الكنين، شعراء العراق المعاصرون، بغداد ، مطبعة الشباب ، ١٩٥٧ ، ص٨٠

٤) جعفر صادق حسودي التميمي، معجم الشعراء العراقيين، بغداد ، شركة المعرفة للنشر والتوزيع،١٩٩١ ،ص٢٥٩ .

٥) محمد مهدي البصير ، من انا ، مخطوط باليد ، ١٩٧٣ ،ص١ .

٦) لقاء مع الشيخ ابراهيم الشهيب (اخو البصير) بتاريخ ٢٠٠٣/١/٢٠م .

٧) محمد مهدي البصير ، من انا ، المصدر السابق ، ص٣.

٨) المصدر نفسه ، ص٤ .

٩) لقاء مع الشيخ ابراهيم الشهيب ، المصدر السابق .

١٠) محمد مهدي البصير، ذكريات ، جريدة المنار العدد ١١١٣ سنة ١٩٦٥م .

١١) محمد حسين الزبيدي، العراقيون المنفيون الى جزيرة هنجام، بغداد ، دار الحرية، للطباعة، ١٩٨٩ ، ص١١ .

١٢) عبد المطلب الحلي من شعراء الحلة المعروفين، عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

١٣) خضير العباسي، شعراء الثورة العراقية اثناء الاحتلال البرطاني في العراق، بغداد ، مطبعة دار المعارف ، ١٩٥٧ ، ص٦٩ .

١٤) محمد القزويني فقيه واديب، وزعيم مطاع، ولد في الحلة سنة ١٢٦٢هـ - ١٨٤٤م وتوفي سنة ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م، ينظر: يوسف كركوش ، تاريخ الحلة ، النجف الاشرف ، المطبعة الحيدرية ، ١٩٦٥، ج٢ ، ص١٨٦ .

١٥)مقابلة مع الشيخ ابراهيم الشهيب، المصدر السابق .

١٦) يوسف كركوش، المصدر السابق، ج٢ ص١٤

١٧)منعم حميد حسن، محمد مهدي البصير شاعرا، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨٠ ، ص٢٥.

١٨) مقابلة مع الشيخ ابراهيم الشهيب، المصدر السابق .

١٩) منعم حميد حسن ، المصدر السابق، ص٢٥ .

٢٠) جريدة صدى الاسلام ، العدد ١٨٣، في٢٠ ربيع الثاني ١٣٣٤هـ ، السنة الاولى .

٢١) للقائد العثماني عاكف بك واقعتان . بدأت الاولى بالعصيان الذي اعلنه اهل الحلة ضد الحكم العثماني يوم ٢٣ آب عام ١٩١٥. وكان سببه ان احد جنود الدرك العثمانيون ، طارد بعض الهاربين من الخدمة العسكرية من ابناء الحلة واثناء المطاردة قتل الجندي العثماني فشن القائد العثماني هجوما واسعا على المدينة وقد استطاع الحليون دحر القوات العثمانية في أكثر من موقع . ينظر: يوسف كركوش ، المصدر السابق ، ج١ ،ص٨٨ .

٢٢) محمد حسين الزبيدي، المصدر السابق ، ص٩٢.

٢٣) وزارة الثقافة والاعلام، محمد مهدي البصير شاعرا، بغداد ، ١٩٨٠، ص٣٠ .

٢٤)مجلة دار السلام ، قصيدة ((فيصل في عالم الخيال)) عدد٤، مج٢، شباط ١٩١٩ ، ص١٦٤- ١٦٧.

٢٥) محمد مهدي البصير، من انا، المصدر السابق، ص١٥ .

٢٦) محمد مهدي البصير، المجموعة الشعرية الكاملة، بغداد ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٧٧ ، ص٣١ .

٢٧) مجلة دار السلام، العدد٢١، كانون الاول ١٩١٨، ص١٠٦ وما بعدها .

٢٨)محمد مهدي البصير، المجموعة الشعرية الكاملة، المصدر السابق، ص٣٢

٢٩)المصدر نفسه ، ص ٣٩.

٣٠)محمد مهدي البصير، تاريخ القضية العراقية، بغداد، مطبعة الفلاح، ١٩٢٣، ج١،ص١٣٧.

٣١)كمال مظهر أحمد، صفحات من تاريخ العراق المعاصر، بغداد ،دار الشؤون الثقافية العامة،١٩٨٧، ص ص ٦٦،٦٧.

٣٢)لقاء مع الشيخ ابراهيم الشهيب، المصدر السابق .

٣٣)محمد حسين الزبيدي، المصدر السابق، ص٩٤.

٣٤)السيد صالح الحلي: خطيب ديني، ولد في الحلة عام ١٢٩٠هـ / ١٨٧٢ م ، ومارس الخطابة الدينية في مساجدها ثم رحل إلى بغداد وأقام فيها . توفي عام ١٣٥٩هـ / ١٩٤١ م .

٣٥)كاظم الدجيلي، أحداث ثورة العشرين كما يرويها شاهد عيان، بغداد ، ١٩٧٢ ، ص٥١

٣٦)علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٥ / القسم الثاني، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٧٧، ص١٣.

٣٧)خليل ابراهيم المشايخي، محمد مهدي البصير وجهوده النقدية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بابل، كلية التربية، ٢٠٠١ ، ص٤٢.

٣٨)يوسف عز الدين، الشعر العراقي الحديث واثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥ ، ص١٤٩ .

٣٩)عبد الله فياض، الثورة العراقية الكبرى لسنة ١٩٢٠ ، بغداد، مطبعة دار السلام، ١٩٧٥ ، ص٦٥ .

٤٠)محمد حسين الزبيدي، المصدر السابق ، ص٩٥.

٤١)عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، بيروت، مطبعة دار الكتب، ١٩٨٢ ، ص٨٨ .

٤٢)كاظم الدجيلي، المصدر السابق، ص٧٦.

٤٣)محمد حسين الزبيدي، المصدر السابق، ص٩٧.

٤٤)محمد مهدي البصير، تاريخ القضية العراقية، المصدر السابق، ج١ ، ص٦٧.

٤٥)كمال مظهر أحمد، المصدر السابق، ص٦٢.

٤٦)المصدر نفسه، ص٦٢.

٤٧)المصدر نفسه، ص٦٧.

٤٨)محمد مهدي البصير، المجموعة الشعرية الكاملة، المصدر السابق، ص٥١.

٤٩)المصدر نفسه، ص٣٧.

٥٠)خليل ابراهيم المشايخي، المصدر السابق، ص٣٩.

٥١)منعم حميد حسن، المصدر السابق ، ص٥٥.

٥٢)محمد مهدي البصير، المجموعة الشعرية الكاملة، المصدر السابق ، ص٥١.

٥٣)المصدر نفسه، ص٥٢.

٥٤)المصدر نفسه، ص٥٦.

٥٥)رؤوف الواعظ، محمد مهدي البصير شاعر الثورة العراقية، مجلة الاقلام، العدد العاشر، ١٩٦٥ ، ص١٢٦.

٥٦)منير بكر التكريتي، محمد مهدي البصير، مجلة المورد، العدد الثامن، ١٩٧٩ ، ص٧٥.

٥٧)كمال مظهر أحمد، المصدر السابق، ص٦٣.

٥٨)محمد حسين الزبيدي، المصدر السابق، ص٩٩.

٥٩)علي الوردي، المصدر السابق، ج٥ قسم ٢، ص١٣ .